

من ربوع الغرب إلى بلاد العرب

للمستشرق الحجري

الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

مسجد دلهي العظيم ، ومن تلك الساعة أحسست من أعماق
روحي بأنني أقترب من الغاية التي أرنو إليها بحيث يصبح في
مكتني الطواف بالبقاع الاسلامية المقدسة في مكة ، والتعرج على
المدينة مقر القبر النبوي الطاهر ومثوى سيد الخلق

ولكن كيف أذهب إلى الحج وأنا لا أعرف من العربية
حرفاً واحداً ؟ كيف أدرس « أم اللغات » وأنا في أوروبا
وبالأخص في بلاد نائية كالجزر لا يوجد بها من يتكلم بهذه اللغة
التي هي في نظري أصعب من تعلم أربع لغات أوروبية معاً !! ؟
وتلك لعمري كانت من أقوى العقبات التي وقفت حائلاً بيني
وبين تنفيذ رغبتي أو تحقيق أمنيتي في حينها

على أنه كان لي من قوة الايمان وثبات اليقين ما دفعني إلى
الاقبال على تعلم هذه اللغة مهما بلغت العقبات وقامت الصعاب ،
فبدأت أولاً أدرس العربية بدون معلم وبواسطة كتب
حصلت عليها من المكتبات الأوربية ، ثم عكفت على قراءة
القرآن الشريف بمساعدة المعاجم اللغوية ، وحفظت عن ظهر
قلب معاني الكلمات البهمة والألفاظ المعقدة ، وتابمت السير
على هذه الخبطة عدة شهور إلى أن أصبحت بفضل الله ورحمته
ملكاً بأسولها . وفي خلال شهور الصيف أخذت أطالع قصص
« ألف ليلة وليلة » والمعجم إلى جاني ، وكثيراً ما لاقيت
صعاباً كادت تفت في عضدي وتوهن من قواي ، كالشعر
الجاهلي الذي كان يبدو على الرغم من جماله وموسيقاه مبهماً
مقداً ، فكنت من حين لآخر أذف بالكتاب جانباً وقد فر
في عنزي الأعود إليه سرراً أخرى ليأمن من التقدم

وبمرور الزمان انتصرت على جميع الصعاب ، ورحمت أنفهم
العربية في شيء من السهولة واليسر ، مع أنني لم أسمع في حياتي
صوت متكلم بها ؟ ولما أبقيت مقدار ما تبطنه الظروف وأن
هناك بعض النقص في الماي بالأدب العربي والشريعة السمحاء
سمعت قبل الشروع في زيارة البقاع الاسلامية المقدسة على
أن أقيم فترة طويلة من الزمن في مصر حيث الأزهر الشريف
مركز الثقافة الاسلامية ومحط العلماء

وفي الواقع كنت أسمد مخلوق في العالم عند ما ألقيت نفسي
أدخراً مبلطاً من المال يساعدي على أن أطيل إقامتي على ضفاف
النيل السيد مهد المدينة والسلام
وعندما وطئت قدمي أرض القاهرة قولت بحفاوة عظيمة



لثلاثين عاماً خلت
وأمنيته الوحيدة الاشتراك
في موكب الحجيج
والذهاب إلى مكة ، حيث
يزغ بحر الاسلام ،
واقترنت دعوة النبي
الكريم وتمالجه المقدسة .
وقد اثبتت في نفسي هذا
الشمور إثر مشاهدتي
رسماً فوتوغرافية
نشرت في إحدى الصحف

الأوربية الكبرى عن الدكتور جرمانوس في لباس عربي
سياحة قام بها أحد الرحالين وتحدث فيها عن عجائب الشرق
حيث تسطع الشمس طول النهار ، ويريق القمر أشعته الفضية
فوق رمال الصحراء في الليل

وكان الأثر الذي تركته هذه الرسوم والمناظر الفتاة عميقاً
في نفسي ، وبعثت لاقبالاً على تعلم اللغة التركية ، وعلى زيارة
الشرق مهد الديانات الحديثة ومهبط الوحي المقدس
ولكن الأمور جرت في شيء من البطء ، أي أكثر مما
تخيلته في البدء ، فشاغل الحياة والواجبات اليومية اللقطة على
طائفي وقفت عقبة في سبيل تحقيق تلك الأحلام الذهبية التي
تطوف بذهني وبجذبي نحو الاسلام . . . وأخيراً دعيت لزيارة
المهند حيث قضيت بين ربوعها سنوات ثلاثاً لالتقاء محاضرات
عن التاريخ في جلساتها ، وهناك اعتنقت الدين الاسلامي في

من جانب أدباء مصر وصحفيها وغيرهم ممن سهدوا السبيل أمامي لاستكمال نواحي دراستي في الأدب العربي ، والتعمق في شباب الدين الحنيف ، بحيث أصبح قادراً على صد هجمات كل من تسول له نفسه الافتراء أو التشويه من عظمة الاسلام في أوروبا وكانت فكرتي مقترنة دائماً بأن أدرس العربية دراسة جامعية لا دراسة هواية ، شأن كثير من الترفيف ممن يكفون على تعلم اللغات لغرض السياحة أو بقصد القراءة الخفيفة السلية ؛ وكنت أرى من وراء دراستي الى القيام بخدمة الاسلام والمسلمين الذين وقعوا تحت نير الاستعمار الأوربي منذ قرون ؛ وقد كانت هذه الغاية من أقوى العوامل التي دفعتني للتقرب من المسلمين في الهند وتركيا ومصر . وإن أنس لا أنس الظروف التي لاقيت فيها كثيراً من فقراء المسلمين المهنود ، وهم يعيشون في بطوناً كواخهم المشيدة من القش ، ويستضيئون بأنوار الاسلام فتتحول تلك الأكوخ في أنظارهم إلى قصور وجنات بحيث يحترفون مظاهر الجأء والثروة ويطأونها تحت أقدامهم فالقرآن هو المثل الأعلى لتوجيه الانسان إلى الطريق السوي الذي يحتم على كل مسلم غيور ألا يجحد عنه قيد شعرة ؛ والسلم الذي لم تعم بصيرته عن تلك الحقائق ويفقه تعاليم دينه فقهاً صحيحاً يرى أن القبس الروحي يتأجج في قلوب المسلمين جيماً ممن لا ينكصرون عن التضحية وبذل الواجب ، والذين يفنون ذواتهم في ذات الغرض الاسمي ، ويأخذون على عواتقهم التغلب على كل أمر والتجول في أنحاء العالم لنشر الدعوة وإظهار فضائل دينهم ومحاسنه

والواقع أننا قد نجد بعض مظاهر هذه القوة في الايمان عند بعض الأمم الأجنبية الأخرى ، لكنني أفتيت في قلوب إخواني المسلمين كنتوا تفوق في قيمتها الذهب والأحجار الكريمة ؛ ولقد عاشرت مسلمين فقراء كانوا لا يهجمون عن أن يقاسموا رفاقهم آخر ركسة يلكونها من الخبز . . . كم استضافوني في بيوتهم التواضعة وأعطوني أعظم شيء في الوجود . . . إنهم منحونني إحساس الحب والتآخي ، ولقنوني عمل الخسير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعندما أطلقوني من ضيافتهم قاهوا بحكمة نبيهم الكريم : « اطلبوا العلم ولو في الصين »

وعقب وصولي القاهرة قصدت فوراً للأقامة في الحي الواد المعروف « بسيدنا الحسين » ، لكنني لم أوفق للحصول على ملائم

لقد كنت في خلال إقامتي الطويلة بتركيا أفتن في غر حجة مؤثثة بالطنافس الونيرة والرياش الفخم ، وكنت أتسا أخيراً كل الشرقية وأشهاها ؛ فمن مظاهر الحياة الاسلام ، فن الطهي ، إذ يؤثر عن النبي الكريم أنه كان يبحث الناس العناية بمسائل الطعام والذبيح المحلل ، ولا تخفي القائدة من ور ذلك ، فاتباع الطرق الصحية ومسائل النظافة والعناية بالله مما يزيد في صحة الأجسام ومناعتها

كانت آمل أن أذن قبل القدوم الى القاهرة أن أقيم في بيوت تلك البيوت العربية الطراز ، وبين قوم يرتدون اللباس الشرقى الفضفاض ويتناولون الطعام بأيديهم ، ولكن ليس كما ما يمتنى المرء يدركه ، فاني لم أوفق في الحصول على ملائم ، فاضطرت الى الاقامة في نزل أوربي

ولكم تألت إذ أفتيت أهل القاهرة لا يلبسون الثياب الشرقية المزركشة ، ويستبدلون باللفطان والعمامة شعار الاسلام — الأزياء الأوربية ، كما راعني في البيوت المصرية التي زرته خلوها من الأثاث الشرقى ، وأن أجد الشباب المصري يوجب عناية خاصة للامام بأنواع الثقافات الأوربية المتعددة ، ويفرطون في جانب لغتهم وقوميتهم ودينهم ١١

ولقد قال أحد أصدقائي المصريين في معرض حديث أسمى : « يستحيل علينا أن نعود الى تلك الأتواب الطويلة المهلهل عند ما نبني الصعود الى المركبات أو عربات الترام » ولكنني رأيت كثيراً من الناس يرتدون تلك الأتواب وما كان أجملهم في نظري وهم يتسلقون الترام أو السيارة بكل خفة ورشاقاة والواقع أن تلك الملابس أفضل بكثير من الأتواب الأوربية الضيقة ، ولا سيما القبعات التي تضطر الى أن نحملها بين أيدينا عند ما نجلس أو نرور أو نجي أحداً

ومن رأي أن الحصول على الأثاث الشرقى واللباس العربى والتطبع بالمعادات الشرقية أمور يسهل اتباعها في القرن العشرين من غير أن يفقد المصريون خصائصهم ومميزاتهم ، أضف الى ذلك أن إحياء الصناعات القومية وإنعاش حال الأسواق الشرقية